الوعي القومي الكردي: ضبابية حلم قيد الإنشاء

الأمجد سلامة *

«هل الراقدون هنا يعرفون لما ماتوا؟
وهل آمنوا حين لبّوا النداء
هل حقّاً آمنوا أن هذه الحرب ستنهي الحروب؟»
من أغنية «حقول فرنسا الخضراء»

إريك بوغل

لا يمكن للمتابع في العالم الذي نعيشه اليوم أن يتجاهل عامل الأقليات العرقية والإثنية وتأثيره في مجرى السياسة والأمن في الدول التي تتوزع فيها. ويمكن ملاحظة التأثير الأكبر في المستعمرات السابقة والتي تحولت إلى دول قومية، اقتداءً بالمُثل الأوروبية، مع انتصاف القرن العشرين. وفي معظم الحالات تحول الصراع مع هذه الأقليات إلى صراع عنفي في حقبة أو أخرى من تاريخ هذه الدول، ما أعاق تقدمها لعقود.
وأيضا لا يمكن عزل حدّة هذه الصراعات عن تدخّلات الدول الاستعمارية لتأجيجها، في سبيل خدمة مصالحها. وبعض هذه الصراعات استمر لعقود، استنفذت حياة وطاقات خيرة الشباب في مناطق الصراع، بدلاً من استغلالهم في بناء مجتمعات مزدهرة. ومن أبرز الأمثلة على هذه الصراعات الطويلة صراع الكاين (أو الكارين) مع البورميين في ميانمار (بورما سابقاً).

أرض الورود

يقول يوكو كورويْوا ومايكل فِركويْنِ، في مقالتهما البحثية «سرديات وتشكيل هوية مشتركة: الكارين في بورما»، أن الكاين يزعمون أنهم من أوائل الشعوب المستعمرة لبورما، وهم يتوزعون ما بين بورما وتايلاند. ولكن الكاتبين يعيدان في المقابل أصل تشكل الشعور بالشعوبية والانتماء الإثني عند الكاين إلى تأثيرات المبشرين المعمدانيين الأميركيين الذين بدأوا التبشير في بدايات القرن التاسع عشر. ويريان أن إدخال المبشرين للكتابة النصوصية على لغات الكاين عبر إصدار الكتب والدوريات والصحف، بالإضافة إلى تعليم القراءة والكتابة وشبكة العلاقات والجمعيات التي نسجتها الكنائس بين مجتمعات الكاين المحلية المختلفة، كل ذلك طور الشعور القومي ـ الإثني لدى الكاين (القومية ـ الإثنية هي القومية التي تُعرف حدودها بحدود العنصر الإثني داخلها).
وفي عام 1881 تألفت «الجمعية الوطنية للكاين» بهدف تطوير أوضاع مجتمعات الكاين الاقتصادية والاجتماعية.
ويوصّف كاتبا المقال هذه الجمعية بأنها أول شكل مُمأسس حاول جمع الكاين على اختلاف لغاتهم وأديانهم وتوزعهم الجغرافي. ويضيفان بأن «الإصلاحات الإدارية» التي طبقها الاستعمار البريطاني مع نهايات القرن التاسع عشر حولت الجمعية إلى مؤسسة قومية ـ إثنية بكل ما للكلمة من معنى، بالإضافة إلى أن هذه «الإصلاحات» أشعرت قادة مجتمع الكاين لأول مرة بأن مصالحه السياسية مختلفة عن مصالح الأغلبية البورمية. ومع حلول عام 1928 طالب «سان بو»، عضو «المجلس التشريعي في بورما» (مجلس استشاري لسلطات الاستعمار)، بدولة مستقلة للكاين، في أول إعلان رسمي عن طموح الكاين القومي ـ الإثني بالاستقلال.
وفي الحرب العالمية الثانية حافظ الكاين على علاقات ممتازة مع البريطانيين بالرغم من الاحتلال الياباني للبلاد، وساهموا بشكل كبير في تسهيل عمليات البريطانيين ضد اليابانيين. ولكن مع ظهور ملامح استقلال بورما بعد الحرب لم تبدُ دولة الكاين المستقلة أقرب. تقول دوروثي وودمان، في كتابها «صناعة بورما»، أن البريطانيين وجدوا في الأقليات ولا سيما الكاين خط الدفاع الأمثل ضد المد الشيوعي، ولكنهم لم يكونوا في وارد دعم مطالبهم بدولة مستقلة، لأسباب عدة أهمها ضعف الحاكم البورمي «يو نو». وقد وصّف وينستون تشيرتشل الموقف البريطاني بالخيانة نظراً إلى ما قدمه الكاين للبريطانيين ما قبل وخلال وما بعد الحرب.
وبسبب هذا التردد في دعم سعيهم للاستقلال، شكّلت جمعيات الكاين «تجمع الكاين الوطني»، الذي أعلن في عام 1949 قيام دولة «كاوثولي» أو أرض الورود. وعلى إثر هذا الإعلان اندلع صراع مسلح بين الكاين والجيش البورمي، كانت للبريطانيين يدٌ طولى في تسعيره عبر مد الكاين بالسلاح في الوقت نفسه الذي كانت تلتزم فيه الحكومة البريطانية مبدأ وحدة أراضي بورما. وتظهر وودمان حرص البريطانيين على عدم اصطفاف الكاين، في أي مرحلة، مع الشيوعيين الذين كانوا قد شكلوا بدورهم جبهة مسلحة. ومع مرور الوقت «تشقق تجمع الكاين الوطني» إلى مجموعات مسلحة كل منها يحمل مشروعاً، ولم يبقَ منها إلا مجموعة واحدة تحلم بدولة مستقلة حتى اليوم.
استغل البريطانيون الكاين بشكل فعال منذ الأيام الأولى لوصولهم إلى بورما عام 1887، وتطوّرت وجهات استغلالهم مع تطور الحس القومي ـ الإثني لدى مجتمعاتهم.
ولكن كيف يتطور الشعور القومي ـ الإثني؟

تطوّر المائع

يفرق أنثوني سميث، في كتابه «القومية: النظرية، الأيديولوجيا، التاريخ»، بين القومية ـ الإثنية والقومية «التطوّعية» (المبنية على حدود جغرافية للدولة). فيقول إن العامل الإثني أساسي في أي نوع من القومية، ولكنه أكثر ظهوراً في القومية الإثنية. فالانتماء الإثني العضوي والجذري الأساسي هو محور القومية ـ الإثنية.
ويضيف سميث، إلى شرحه هذا، بعض النظريات، ومنها نظرية هيو سِتون واتسون التي يذكر منها التفريق ما بين القومية في الدول القومية في أوروبا الغربية «الدول القومية القديمة» والقومية في الدول القومية المصطنعة، حيث يطغى العامل الإثني في صناعتها (وهي الدول التي نتجت عن عملية تفكيك الشكل الاستعماري القديم بعد الحرب العالمية الثانية).
وعليه فإن وجود الوعي الإثني عند جماعة ما، هو الأساس في وجود حسّهم القومي ـ الإثني. ويشرح الأنثروبولوجي فريدريك بارث، في كتابه «المجموعات الإثنية والحدود»، علاقة «الشكل الثقافي»، الذي يمكن استعماله لتوصيف الجماعة، بالبيئة. والبيئة هنا ليست حصراً على الطبيعة، بل تتعداها إلى كل الظروف المحيطة التي يجب أن يتأقلم معها «المؤثّرون». ويرسم في كتابه صورة عن مفهوم مائع للإثنية، يتفاعل مع اختلاف محيطه، فنرى ثقافات فرعية مختلفة داخل المجموعة الإثنية نفسها.
ولكن أهم ما يقدمه بارث هو فهمه لكيفية تحديد الهوية الإثنية، فهو يربط بين موقع المجموعة من مفهوم «المجتمع الصناعي» والمنحى الذي ستتخذه هذه المجموعة في تطورها. ويضع هذا التطور في يد «المؤثرين»، أي النخب، في حالات المجتمعات غير الصناعية. فهذه النخب ستتخذ طريقاً من ثلاثة: إما أن تحاول دخول المجتمعات الصناعية المحيطة بها، أو أن تقبل بوضعها كأقلية، أو أن تذهب باتجاه بلورة هوية إثنية خاصة بها.
ويضيف بأن العامل الأكثر تأثيراً في التوجه نحو الخيار الثالث هو الاحتكاك القوي بمجموعات إثنية أخرى. فهذا الاحتكاك، على عكس ما يظن البعض بأنه سيقصّر المسافات بين المجموعات، فهو يسهل تعريف الحدود الإثنية ـ الثقافية للجماعة ويدفع نحو تقوية الروابط داخل الجماعة نفسها.
فالانتماء الإثني مفهوم مائع، يخضع لعوامل تدفع إلى بلورته أو الحد منها.
وهذا الانتماء، بما هو الحجر الأساس في القومية ـ الإثنية، يدفع بتطوّره تطور الحس القومي.

كردستان: حلم واحد، أحلام كثيرة

ويوجد في منطقتنا مثال واضح وحديث نسبياً عن تطوّر الهوية القومية ـ الإثنية لمجموعة مجتمعات أدى إلى تطور نزعة استقلالية عندها، وهو الأكراد. وفي كتابه «ظهور القومية الكردية وثورة الشيخ سعيد»، يعدد روبرت أولسون أربع مراحل من تطور هذه القومية. المرحلة الأولى هي ثورة الشيخ عبيد الله النهري، والمرحلة الثانية هي مرحلة الخيالة الحميدية التي تشكّلت عام 1890 إلى الحرب العالمية الأولى، أما المرحلة الثالثة فهي الحرب العالمية الأولى ومعاهدة «سيفر»، بينما المرحلة الرابعة هي أحداث العقد الأوّل ما بعد الحرب.
ويوصّف أولسون حراك الشيخ عبيد الله بأول وعي قومي كردي، وكان الشيخ عبيد الله النهري قد بدأ بالتوسع في الأراضي الكردية في شرق الامبراطورية العثمانية على إثر الحرب العثمانية ـ الروسية بين عامي 1878 و1879. ويسرد وديع جويدة، في كتابه «الحركة القومية الكردية: نشأتها وتطورها»، كيف أجبرت الحرب السلطان عبد الحميد الثاني على تعيين الشيخ عبيد الله قائداً للحرس الكردي على الحدود الشرقية للإمبراطورية. ومن ثم يعلق على بعض المراسلات البريطانية (رسائل من ممثّلي بريطانيا في تبريز وطهران وأرض روم إلى حكومتهم) التي تشرح خطط عبيد الله بتوحيد أراضي الأكراد في إيران والامبراطورية العثمانية ضمن دولة واحدة. فيقول إن الشيخ عبيد الله وضّح ثلاثة أسباب لسعيه: الأول هو التشابه العرقي واللغوي والثقافي بين المجتمعات الكردية، والثاني هو انتشار الفوضى في بلاد الأكراد، بينما الثالث هو الخوف من الصعود السياسي والاجتماعي الأرمني.
ويبدو أن السبب الأبرز كان الخوف من الصعود الأرمني، فيفرد جويدة مساحة معتبرة ليستعرض أقوال الشيخ عبيد الله التي يشرح فيها خوفه من الدعم الغربي لقيام دولة أرمنية ابتداءً من مدينة فان (جنوب شرقي تركيا اليوم) جنوباً وتتمدد شمالاً إلى الحدود الروسية.
ويشرح جويدة أن الدعم التركي الذي تلقاه عبيد الله في بداية حركته كان لإفشال مقررات معاهدة صلح برلين (التي أنهت الحرب آنفة الذكر) المتعلقة بالأرمن من جهة، ولمحاولة ضم الأراضي الكردية في إيران إلى الامبراطورية من جهة أخرى.
وعند هزيمة الشيخ عبيد الله أمام

ألم يفشل مشروع رياض الترك؟

محمد سيد رصاص *

في تعليق لأحد السجناء السياسيين من حزب «العمل الشيوعي» في سوريا في سجن صيدنايا على استسلام القوات العراقية في حرب 1991 للأميركي قال التالي: «كنت أتمنى لو تابع الجنرال شوارزكوف الطريق إلى بغداد ليسقط صدام حسين». في كانون الأول من عام 1992، قال سجين من الحزب نفسه في القسم السياسي من سجن عدرا الكلام التالي تعليقاً على إرسال الإدارة الأميركية جنوداً إلى الصومال تحت ذريعة إنقاذ الصوماليين من المجاعة في ظرف الحرب الأهلية: «القضايا الانسانية تسقط الحدود ويجب تأييد هذا التدخل». في آذار 2001، وأثناء انعقاد المؤتمر التداولي للحزب الشيوعي السوري (المكتب السياسي)، قال أحد الحاضرين الكلام التالي: «العولمة أسقطت الحدود ويجب عدم رفض أي تدخل دولي ضد الديكتاتوريات من أجل الديموقراطية وحقوق الانسان». في خريف 2002، وأثناء ظهور علامات على الاستعدادات الأميركية لغزو العراق، كتب أحد قادة «حزب العمال الثوري العربي»، الذي أسسه ياسين الحافظ عام 1965، مقالاً تحت عنوان: «تهافت الدفاع عن العراق»، اعتبر فيه «الاستبداد أسوأ من الاستعمار»، وفي الفترة نفسها، كان صاحب القول ذاك عن شوارزكوف يثني على المعارضة العراقية في مؤتمر لندن (كانون الأول 2002) الذي تم بتنظيم من رجل الإدارة الأميركية (زالمان خليل زادة) ويقول في تسويغ ذلك إن «الديكتاتوريات قد جففت كل العوامل الداخلية للتغيير». كانت تلك الآراء معزولة ومستنكرة، وأذكر لما كنا في جلسة الاتهام في محكمة أمن الدولة في شباط 1993 كيف نقل سجين من صيدنايا لنا نحن الآتون من عدرا باستنكار وتعجب ذلك الرأي عن شوارزكوف وكان أكثر استغرابه أن صاحب هذا الرأي هو الذي كان الأكثر تمسكاً بالماركسية السوفياتية في حزب العمل أمام الآخرين الذين كانوا أقرب إلى تيار (اليسار الجديد). لم تتحول تلك الآراء إلى تيار سياسي في الفترة السابقة لسقوط بغداد في التاسع من نيسان 2003 وإن كان واضحاً فيها نقطتان: ماركسيون صدمتهم هزيمة موسكو أمام واشنطن في الحرب الباردة (1947ـ 1989)، ومعارضون سوريون حطمت تنظيماتهم في السجون أو في العمل السري في الثمانينيات بعد انتصار النظام على المعارضة بشقيها الإسلامي واليساري وسط انكفاء وصيام المجتمع السوري عن السياسة. كان اجتماع هاتين النقطتين قد أنتج بذرة جنين لنزعة الاستعانة بالأجنبي ولكن بعد تغيير «القميص الماركسي».
اختلف المشهد عند الكثير من المعارضين في فترة ما بعد 9 نيسان 2003: اعتبر احتلال العراق عند كثيرين «سقوطاً لصدام حسين وليس للعراق». لم يعد أحمد الجلبي مستنكراً أو مثيراً للاشمئزاز في وسط العديد من المعارضين السوريين وهو الذي حملته الدبابة الأميركية على ظهرها إلى بغداد، ثم بدأت تنظيرات تظهر، وسط حصول التصادم الأميركي ـ السوري بعد زيارة وزير الخارجية الأميركية كولن باول إلى دمشق بعد ثلاثة أسابيع من سقوط بغداد، عن «انتهاء صلاحية الأنظمة الديكتاتورية»، وعن أن «الدبابة الأميركية عند القائم والبوكمال هي مثل الباص الذاهب من دمشق إلى حلب في استراحة حمص»، ولو أن البعض كان يتوقع سيناريوات غير عسكرية في دمشق مغايرة لسيناريو بغداد 9 نيسان 2003، و«أن السلطة السورية تتفادى ذلك أو تبعد كرة النار من خلال الضغط على الأميركان عبر دعم المقاومة العراقية».
في يوم 28 أيلول عام 2003، وفي مقابلة مع صحيفة «النهار»، أطلق رياض الترك نظرية «الصفر الاستعماري»: «اعتبر أن الأميركيين قد قاموا بفعل مفيد وأنهم نقلوا العراق من تحت الصفر إلى الصفر». كان يعني هذا عنده أن «الاستبداد أسوأ من الاستعمار» أو الاحتلال. كانت رمزية رياض الترك قوية عند كل المعارضين السوريين وكان مؤهلاً في فترة ما بعد 10 حزيران 2000 مع بداية العهد الجديد إثر وفاة الرئيس حافظ الأسد، لكي يقود جبهة عريضة من المعارضين العروبيين الناصريين والبعثيين ومن الماركسيين ومن الاسلاميين. كان هذا مشروعه بعد خروجه من السجن في 30 أيار 1998 نحو تجاوز «التجمع الوطني الديمقراطي» أو هكذا كان البعض يريده أن يقوم بذلك. ما لفت النظر كان إطلاقه لتلك النظرية عن «الصفر الاستعماري» قبل أيام قليلة من ركوبه الطائرة نحو القارتين الأوروبية والأميركية، حيث زار واشنطن سراً عبر الحدود البرية الكندية ـ الأميركية

الأخبار al-akhbar
■ رئيس التحرير ـ المدير المسؤول: ابراهيم الأمين
■ نائب رئيس التحرير: بيار أبي صعب
■ مديرا التحرير: إيلي شلهوب، وفيق قانصوه
■ مجلس التحرير: محمد زبيب، حسن عليق، إيلي حنا، أمل الأندري، شربل كريّم
■ صادرة عن شركة أخبار بيروت
■ المكاتب بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق السادس
■ تلفاكس: 01759500 / 01759597
■ ص.ب 113/5963
■ الإعلانات الوكيل الحصري ads@al-akhbar.com 01/759500
■ التوزيع شركة الوانك 15ـ 01 /666314 ـ 03 / 828381
■ الموقع الالكتروني www.al-akhbar.com
■ صفحات التواصل /AlakhbarNews @AlakhbarNews /alakhbarnews-paper